وأخطر ما في هذه المسألة، هو أن «الجبهة اللبنانية» أخذت من فكرة التوطين مجالاً رحباً لاقناع المواطنين بضرورة التجاوب مع طروحاتها القائلة باعتماد الفيدرالية أو الكونفيدرالية، وصولاً إلى طرح فكرة «تحرير كل لبنان». وغنيّ عن البيان أن أكثر من طرف رسمي، شارك ويشارك في التحرك الهادف لتأمين الأجواء لهذه الجبهة، ولحزب الكتائب بالذات، لتنفيذ المشاريع التي أفصحا عنها مراراً وتكراراً.

ثامناً: وأفضل تعبير عن التوجه الانعزالي في ما يتعلق بالفلسطينيين، وبعلاقة الوجود الفلسطيني المسلح بالصراع اللبناني، هو ما أعلنه الشيخ بيار الجميّل من أنه إذا حصل التوطين في لبنان «سيؤدي إلى خلل في التوازن الديمغرافي وسيؤثر على الكيان الوطني للبنان، وعلى الكيان القومي للعرب... وبهذا التوطين يخسر لبنان صيغته النموذجية»[٤].

وبعد هذه المخاوف على الصيغة «النموذجية»، التي اتخذتها الكتائب والرجعية اللبنانية ذريعة لمحاربة كل مطلب شعبي وكل دعوة للتعاون مع الأشقاء العرب، وبأسمها فتحت النار على الحركة الشعبية اللبنانية وعلى العمل الفدائي الفلسطيني وقامت المجازر بدءاً من ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٦٩. بعد هذا، ينتقل رئيس الكتائب إلى فكرة ظاهرها نصائح «بديهية» وحقيقتها لعبة دموية: ما زال لبنان يدفع ثمنها من لحمه ودمه! يقول: «لا خلاف بين اللبنانيين كلبنانيين، فليرفعوا الضغوط عن اللبناني، وليرفعوا عنه السلاح المسلّط، وهو كفيل بالعودة إلى حياة التضامن والمحبة في ظل وطن واحد سيد حرّ مستقل، بأقل من أربع وعشرين ساعة. ولكن مشكلتنا الكبرى أن المحاور في الجانب الآخر مغلوب على أمره، وأصبح في حكم اللامرجود، وحل محله حينا المحاور الفلسطيني وأحياناً المحاور اليساري أو الخارجي».

ولم يكن من الصعب أن يتبين للجميع، أي حوار هو الذي تريده الكتائب مع «الجانب الآخر» أو مع «الجناح الآخر» على حد تعبير بيار الجميّل. إنه الحوار الذي بدأ بالرصاصات على اوتوبيس عين الرمانة وواصل طريقه عبر مجازر القتل والتهجير والتعذيب، والتي لم تقتصر على «الفلسطينيين والسوريين وسائر الغرباء»، ولم تقتصر أيضاً على طوائف معينة، وإنما دفع ثمنها أيضاً عشرات الألوف من المسيحيين. إنه الحوار الذي بلغ واحدة من أعلى درجاته في عملية تصفية مواقع ومقاتلي كميل شمعون بالذات. إنه الحوار المتمثل في الاقتحام الدموي لمدينة اهدن وفي اصطياد الأبرياء على حاجز البربارة على طريق بيروت – طرابلس. وفي كل حال، فالكتائب وضعت، في كلمات بسيطة ومعبرة، عناوين الحوار الذي تريده مع «الجناح الآخر»، وعناوين الالتقاء المفروض أن يحصل بين اللبنانيين، وأهمها: نزع عروبة لبنان، واعتماد «التعددية الحضارية» التي تتحول معها كل طائفة إلى نوع من القومية، ولبنان جزء من الحضارة الغربية ومن «العالم الحر»، ولا مكان للفلسطينيين وللوجود الفلسطيني المسلح بصورة خاصة، وطرد قوات الردع العربية، وبناء وتطوير «القوات اللبنانية» لتكون هي البديل عن الجميع، وعن الجيش اللبناني الشرعي بالذات. وفي كل حال فبشير الجميل وجّه دعواته «للحوار مع المسلمين» بعد كل مجزرة تقوم بها قواته. كما وجه بعد كل مجزرة، دعوة للتفاهم والتعامل مع العرب، وإنما بالطبع من